



عن الحرية، والحزن، والجنون، والإبداع

<http://www.arabpsynet.com/Rakhawy/RakD120313.pdf>

بروفيسور يحيى الرخاوي

[mokattampsy2002@hotmail.com](mailto:mokattampsy2002@hotmail.com) - [rakhawy@rakhawy.org](mailto:rakhawy@rakhawy.org)

نشرة "الإنسان والتطور" 2013/03/12

السنة السادسة - العدد: 2020

### مقدمة:

لأن الثلاثاء حرّاً فعلاً، فقد قرر فجأة أن يجمع المقالات الأربعة المتتالية في "أخبار الأدب" عن "الحرية والجنون والحزن والإبداع" (من 2013-2-24 إلى 2013-3-17)، لينشرها مجتمعة برغم ما سبق نشره بتفصيل عن الحرية عموماً في خمسة عشر نشرة في نشرات: "ماهية الحرية، والصحة النفسية) من نشرة 2010-12-28 إلى نشرة 2012-1-4، بالإضافة إلى عشر نشرات تم نشرهم في: (رؤى ومقامات)، "عن الحرية..من نشرة 2009-11-9 إلى نشرة 2011-1-11 . 2010

وقد وافقت حيث بدا لي أن الإيجاز الذي أعيد به نشر بعض ما جاء في تلك النشرات التفصيلية قد يكون أكثر فائدة لمن أراد أن يلمّ نفسه بعد إعادة التحرير هكذا:

\* \* \* \*

### الحرية والإبداع والجنون (1من4)

المخرجة (الفرنسية): ماذا عن الحرية، وما هو موقفك منها؟ نجيب محفوظ: موقفي؟!!!!!! الحرية هي المفتاح الذي نهتدي به إلى الإنسانية الحقيقية، هي الأساس في التفكير لمعرفة أي جديد أو أي حسن، لا يمكن أن يحصل أي تقدم في العلم أو الفن أو العلاقات من غير حرية، هي جوهر الإنسان، الإنسان مخلوق ليحقق حريته  
المخرجة: هل هناك وضع خاص للكاتب بالنسبة للحرية؟  
نجيب محفوظ: بالنسبة للكاتب، ! هي حياته  
المخرجة: إلي أي مدي يمكن أن يصل دفاعك عن الحرية؟  
نجيب محفوظ: مدي؟! (ضحك) إلي المدي الذي يجعل ما حدث يحدث (وأشار إلي رقبته)..

هذا المقطع هو من الحديث الذي أجرته المخرجة الفرنسية مع نجيب محفوظ في بيت توفيق صالح، أثناء تسجيلها لجلسة من لقاءات الحرافيش

من هذا المنطلق، ومع تحذيري المستمر للشباب خاصة ألا يخدعوا كثيراً في الشعارات، وأن يدققوا في مضمونات المطالب، توقفت عند كلمة احريتب التي وردت في شعارات/مطالب مشروع الثورة، وباعتبار أن الثورة إبداع جماعي، وأن الفوضي جنون جماعي، قلت أسارع من خلال هذه النافذة الجديدة الكريمة بقول ما عندي لعله يسهم في قلب الجنون المهتد إلي إبداع خلاق والله المستعان.

الطارئ الإشكالي الذي لحق بالإنسان الإنسان: هو أنه أصبح واعياً بذاته بشكل يسمح له بأن يميز بين ما هو "ذات"، وما هو ليس كذلك، فراح يمارس حياته فارقاً بين ما هو بآناب وما هو ليس "أنا"، هذه النقطة الرائعة هي في نفس الوقت محنة حقيقية، ذلك أنها قد هيأت لهذا الكائن الجديد مساحة غير مسبوقة من الحركة المتنوعة التي عرفت في ظاهر السلوك باسم "الحرية". من فرط فرحته بها، وأيضاً من فرط عماء عن حدودها وخداعها، راح يتغني بما تصور أنها تعنيه حتي قدّسها، وإذ تقدست أصبحت صنماً في ذاتها لذاتها، فحرم نفسه من معايشة زخم حركيتها، وتوقعات جدلها.

هذا الوهم الجميل المسمي "الحرية"، أوقع الإنسان في عدد من المضاعفات، بقدر ما أعطاه قدراً متزايداً من الفرص للتطور

المسئول، الخطر في أن. بالغ إنسان العصر الحديث بوجه خاص في تقييم معني وقدرات هذه النقلة النوعية حين أصبح هو الكائن الحي الواعي الذي يستطيع«!، أو الذي يتصور أنه يستطيع!!». أليس هو الكائن الوحيد - في حدود ما نعرف- الذي أصبح قادراً أن يقرر لنفسه بنفسه مساراً وتوجُّهاً واختياراً، بحيث أصبح عاملاً فاعلاً في تحديد كثير من تفاصيل سلوكه، بما يمتد إلى مصير نوعه؟ تجلي الانخداع بهذه النقلة النوعية (اكتساب الوعي بالذات، في مواجهة ما ليس ذاتاً، وقدرة المشاركة في تقرير المصير/الحرية) في مجالات عدة وبآليات متطورة قادرة، إلا أن تلك الآليات، علي حداتها، قد تبادت في غرورها حتي كادت تنحرف بمسار التطور إلى الهلاك. أهم تلك الآليات هو ما سمي «العقل» (وهو ليس إلا جزءاً حديثاً من تاريخنا الرائع) حيث راح العقل البشري الأحدث يختزل التاريخ الحيوي بكل زخم عطائه وفخر نجاحاته عبر تاريخ التطور الطويل إلي ما يدخل في حدود فهمه ومقاييسه، بما في ذلك اختزال الإيمان إلي منظومات مغلقة، قد تختزل الدين إلي ما هو شريعة ثابتة، وأيضاً كاد يختزل زخم الحرية وهيراركية الوعي وتقريعاته إلي ما يسمي «الديمقراطية». وهكذا أصبحت المعارف حكراً علي ما يقره هذا العقل، كما أصبح تفسير الأديان بنشاط عقول فئة بذاتها من البشر الأوصياء، بديلاً مستبعداً غالباً لحركية الإيمان إبداعاً إلي وجه الله.

\* \* \* \*

### الحرية والجنون فالإبداع (2 من 4)

لا يمكن أن نحيط بماهية الحرية الضرورية لحركية الإبداع إلا إذا غامرنا بزيارة أعماق الوعي البشري وجودياً وبيولوجياً عبر مسار التطور، الذي هو نفسه دليل خطير على عمق قضية الاختيار، طالما أن الانقراض هو الاحتمال الغالب وأن انقراض الجنس البشري تهديد وارد، وخاصة بعد ما أصاب العالم من لوثة العولمة وافتراضية التراكم فالاستغلال.

وبرغم أن الحاجة إلى تناول علاقة الحرية بالإبداع هي أزم وأكثر وعداً إلا أنني فضلت أن أبدأ بمناقشة علاقة الحرية بالجنون لأعري سلبياتها المحتملة قبل الانتقال إلى علاقة الحرية بالإبداع عبر مغامرة تشبه الجنون.

**يقف الجنون متحدياً في بؤرة إشكالية الحرية فهو من ناحية: يعلن القدرة على الاختلاف على حساب أي مكسب، وباقتحام أي مجهول، فهو بذلك يمارس أحد مظاهر الحرية في أقصى قدراتها الاقتحامية، ومن ناحية أخرى: هو انسحاب كامل من كل المقومات الضرورية لاختبار حقيقة الحرية في مواجهة الآخر/والواقع، وهو من ناحية ثالثة: استسلام للدخل القابع في الظلام عادة، بما يؤدي إلى نفى الحرية، ليتركنا في مواجهة الوجود الخاوي إلا من التناثر المختلط المرجح في المحل.**

بإيجاز يمكن إعادة الصياغة بألفاظ أخرى تقول:

"إن المجنون يخترق الحواجز، ويعيش التجاوز، وهو يقفز فوق أسوار اللغة بلا لغة، وهو يلعب بالزمن، لا يتبعه، ولا يقع فيه، لكنه في نفس الوقت هو قد ينتهي إلى هلامية ساكنة، حتى لو ترجرت في مكانها، وكأنها تتحرك. إن المجنون الحر الطليق هو في واقع دائر في محله في انغلاق متناثر، فلا هو حر ولا هو طليق.

هكذا ينفي الجنون، الذي يبدو لأول وهله وكأنه الحرية الكاملة، ينفي الحرية تماماً وهو يجتثها من جذورها. مع أن الحرية في جوهر حركيتها تبدو حتمية وهي تسمح باختيار الجنون، فنفاجاً في نفس الوقت أن الجنون هو في النهاية مقصلة الحرية".

الجنون - إذن - هو فعل الحرية لتستحيل.

في الجنون: الحرية تنتحر اختياراً. المجنون يختار أن يحرم نفسه من قدرته على الاختيار.

الممارسة اليومية تُعلمنا كيف أن المجنون - بجنونه- إنما يعلن أن له طريقاً آخر، وأنه استطاع على الرغم من كل شيء أن يرفض السائد الآمن، وأن يتحدى، ليسلك -منفرداً- الصعب المجهول (ثم يفشل).

إن فهم مسألة اختيار الجنون كمهرب أو حلّ نابع من وعي غائر تحتاج إلى التسليم بأساسين:

الأول: تعدد الذوات، في الشخص الواحد، ومن ثم يكون اختيار أي ذات منها على حدة هو نوع من الحرية، حتى ولو بدا على حساب الذات (الذوات) الأخرى. في الجنون: يكون الاختيار الغالب هو فعل الذات الكامنة دون الظاهرة في لحظة بذاتها، ثم تقتحم الذات الكامنة (البدائية عادة) لنقود، فيكون الجنون هو: محصلة غلبة اقتحام من قبل إحدى الذوات بالداخل الكامن جنباً إلى جنب مع آثار هزيمة الذات الظاهرة المرتبطة بالواقع والآخرين.

الثاني: إن اختيار الجنون لا يظهر بشكله المباشر والمعترف به، إلا بعد بداية الجنون نفسه، بمعنى: إن اكتشاف أن الأمر كان

اختياراً سابقاً من وعى كامن يعلن بعد تفعيل الجنون في السلوك الظاهر، وعادة يأتي الاعتراف بعملية الاختيار أثناء العلاج المكثف حيث يقر المجنون باختيار ما هو فيه، بعد اطمئنانه إلى تفعيل اختياره واقعا خاصا ماثلا قويا يسمح له بإعلان أن الأمر "كان اختياراً"، وهذا ما يسمى "سبق التوقيت"، وهو بمثابة تأكيد اختيار ما سبق اختياره.

وبعد

فماذا عن علاقة ذلك بالإبداع؟

وإذا كانت الثورة هي إبداع جماعي، ففي أي مرحلة توقفنا وكيف نكمل؟

\* \* \* \*

### الحزن، والتنازل عن الحرية لإحيائها (3 من 4)

مَسَخَتْ مزاعم الرفاهية واستسهال التقليد وكثير من النفسيين "الحزن" حين أطلقوا عليه لفظ "الاكتئاب"، مع أن موقف الحزن الخلاق هو الذى يميز الكائن البشرى وهو يمارس حريته فى حضور آخر. مُسَخَتْ الحرية أيضا حين اختزلناها فى المعنى السطحى القائل: "حريتي تنتهى عند بدء حرية الآخرين"، وأولى بنا أن نقول: "حريتي تبدأ حين تلتحم جدلا ولافيا مع حرية الآخر"، أما الثمن الذى ندفعه لهذا الاقتحام المتبادل مع "آخر" فهو الحزن العظيم، مهلا: إنه الثمن الذى نقبضه وليس الذى ندفعه، ذلك لأن هذا الحزن الحيوى إنما يعلن حضور نوعية الوعى البشرى المتكامل (المتعدد معا) فى مواصلة سعيه للتفاعل الموضوعى مع وعى بشرى آخر يقوم بنفس الدور، فهو نتيجة تحمل مسؤولية الاعتراف بصعوبة التواصل وضرورته فى آن، فهو نوع ناضج من الحرية يكاد يختص به الكائن البشرى، إن الاختبار الحقيقى لفعل الحرية لا يكون فى فراغ، إذ لا بد من حضور "آخر" موضوعى مائل تتم مواجهته والتفاعل معه على نفس المستوى .

قلنا الأسبوع الماضى إن المجنون (بدءا بالفصامى) قد اختار أن يسلب نفسه حق الاختيار بممارسة اختيار زائف حين اختار حرية الجنون بإرادة جزئية ذاتية منغلقة، بمعنى أن الجنون هو فعل الحرية لتستحيل، فى حين أن الحرية الحقيقية إنما ترتبط بحضور الآخر فى الخارج وفى الوعى معا بكل موضوعيته وتحدياته، ومن ثم صعوباته مع ضرورته، هذا النوع من الاكتئاب يكاد يكون خاصا بالإنسان دون سائر الأحياء، إن معاشة هذا الحزن اليقظ هو الدليل على قبول الواحد منا أن يحافظ على علاقته بالآخر، بالتنازل النسبى عن حريته، حين لا ينسحب من مواجهته، ولا يلغيه، ولا يستبدله فى نفس الوقت، وهو إذ يفعل ذلك يجد أن عليه أن يتحمل الوعى بحضور كليّة الآخر وبمخاطر الاقتراب منه مختلفا ككل موضوعى، وهو يقوم بذلك دون يقين باستمرار هذا الحضور، فيعيش احتمال أن يهجره هذا الآخر طول الوقت، فيتولد هذا الاكتئاب الحيوى أكثر إيلاما وحيوية ونبضا، وهو يعلن حركيّة الحرية بشكل عميق متجدد. اختيار الاستمرار مع آخر دون اختزال أو إجمال هو العامل الأساسى الذى يولد هذا الحزن الحيوى الذى أسميته فى العلاج: "إحياء دياكتك النمو" حيث يهدف هذا العلاج إلى تنمية الوعى، وليس التخلص من الحزن دون تصنيفه. علاقة كل ذلك بالإبداع علاقة وثيقة تماما، وهو ما سنعود إليه لاحقا.

إن تعريفنا لما هو إنسان بأنه الكائن الذى اختار أن يحمل الأمانة حتى دون أن تُعرض عليه عندما اكتسب الوعى، ثم الوعى بالوعى، ثم راح يمارس عبء ما اكتسبه هذا مع كائن بشرى آخر له نفس المواصفات، هو الذى فرض علينا هذا النوع من الوجود المبدع الذى أصبح هو ممارسة حريتنا من خلال قدرتنا على "أن نحزن معا" لنمارس حمل أمانة العلاقة مع بعضنا البعض معا، "نفرح معا"، فنحزن معا، فنفرح معا، لتتخلق معا من جديد، وباستمرار: فهو الإبداع

نختتم اليوم بأن نقول: إذا كان الجنون هو فعل الحرية لتستحيل، وبالتالي فهو فى النهاية مقصلة الحرية، فإن الصحة الفائقة، المرادفة للإبداع، هى بمثابة "فعل الحرية لمدائمة تخليق كائن مسؤول مشارك فى إعادة إبداع ذاته عضوا فى جماعة"، أو بتعبير آخر: إن الإبداع الحياتى يشمل التنازل عن الحرية لإحيائها، بما يشمل المعاشة الإيجابية لذلك الحزن الحيوى النمائى العظيم.

\* \* \* \*

### الحرية للإبداع، أم حرية نشر الإبداع! (4 من 4)

الحديث عن حرية الإبداع يجرى هذه الأيام على قدم وساق، وهو يتركز على الخوف من قيود النشر، وفرط الرقابة ومصادرة المتجاوز بعد تخفيض السقف بما يناسب طول الأقرام، لكن ياليت المسألة تقتصر على هذا، فثم حرية أخرى مهددة أكثر، وهو أن يصل القهر إلى داخلنا فتختنق حركية الإبداع أصلا ولا يظهر منا إنتاج طليق وأصيل إلا فى حدود ما تسمح به أسوار السجن الذى سجنونا فيه

أو سجننا أنفسنا داخله ونحن لا ندري.

الحرية فيما يتعلق بحركية الإبداع لا تبدأ بحرية التعبير، ولا تنتهي بحرية النشر فالنقد، لا إبداع بلا حرية حقيقية. ولا حرية بغير حركية مرنة مغامرة، ولا حركية مرنة مغامرة بغير جدل غامض، ولا جدل إلا في حضور عدد من المتناقضات المتضفرة في رحاب وعى خلاق، يتخلق مع "آخر" يمارس نفس العملية من زاويته بطريقته، وهكذا...

كل الأحياء قبل الإنسان تمارس حريتها وإبداعها بطفرة تطور للنقطة من نوع إلى نوع، وهو أمر محكوم ببرامج وطبيعة وقيود تحرمه من الوعي باختياره، ولا يحدد نجاحه إلا نجأته من الانقراض، الإنسان هو الكائن الوحيد الذي عنده الفرصة للإسهام في التخطيط لنقلته التالية من خلال ممارسته حرية الإبداع واستشراف المستقبل.

الإبداع البشرى كما نعرفه ونمارسه أصبح محنة الإنسان وشرف تمتعه بالوعي في آن، وهو في نفس الوقت اختبار لأحقية الإنسان في المشاركة في مسار تطوره. الشروط الواجب توافرها لحرية حركية العملية الإبداعية غير الشروط اللازمة لإمكان الإعلان عن ناتج العملية وتسويقه، لكن العلاقة بينهما وثيقة ودالة.

حتى تتحقق العميلة الإبداعية في رحاب الوعي والإرادة، ثمة شروط وفاعليات لا بد من توفرها بدرجة مناسبة، نورد أهمها كما يلي: 1- مساحة كافية لاستيعاب حركية الوعي. 2- تنشيط لأكثر من مستوى من الوعي "معا". 3- القبول بدرجة من المخاطرة. 4- حركية مناسبة ذات توجه جدلي ضام. 5- قدرة على التناوب بين الكمون والبسط.

كل هذا ليس علاقة مباشرة بحرية النشر والتواصل من خلاله، وإنما هو يتعلق أساسا بالحرية الداخلية للمبدع للإنسان، أهمية هذا الفصل بين الحرية الضرورية لتحريك عملية الإبداع، والحرية اللازمة لنشر أو تسويق ناتجه ليست أهمية نظرية. إن الاهتمام بالأخيرة دون الأولى يمكن أن يترتب عليه ما يخدع المبدعين الحقيقيين إذا رضوا بها واكتفوا بذلك.

الحرية اللازمة للإبداع الأصيل إنما تتعمق أكثر فأكثر وهي تحاول اختراق الحواجز الخارجية، بعد، ومع الحواجز الداخلية طول الوقت، وقد تقوم المؤسسات الفوقية الخبيثة باختلاق قضايا زائفة، أو فرعية، تلهي المبدع بها وتغريه بخوضها، وهو يتصور أنه يصارع من أجل حريته، في حين أنه لا يخدم إلا تشويهاها، وتزييفها. نتذكر مثلا سماح السينما الأمريكية بشجب حرب فيتنام لتفريغ طاقة معارضيتها، فتستمر الحرب أطول، أو ونحن نتابع حاليا تسويق الحرية الأمريكية المعوالة لتفكيك العالم العربي لصالح استغلاله وتبعيته، أو كما جرى قصدا أو مصادفة من تصنيع غرائز تستولى على الحرية في حين أنها مانعة للحرية مساييرة لما يغلب عند القطيع البشرى في وقت بذاته. ثم العمل على تقديسها تسليما، وعادة ما تحمل هذه الغرائز المانعة للحرية أسماء تغرى بأنها تنتمي إلى ما هو حرية وتحرر مثل منظومة العقل الظاهر، ومنظومة العلم المؤسسي، ومنظومة الديمقراطية الصناديقية، ومنظومة حقوق الإنسان المكتوبة، ومنظومة احتكار تفسير الدين، ومنظومة الطب التقليدي، كل ذلك قد يخلق رقابة داخلية زائفة وخائفة معا. ولهذا حديث آخر.

\*\*\* \*\*

ARABSYNET PRIZE 2013

جائزة بحث الرخاوي لشبكة العلوم النفسية العربية 2013

مخصصة هذا العام للطب النفسي